اسم الدرس : تفسير سورة النازعات ج٢

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نكمل بإذن الله –عز وجل– تفسير سورة النازعات.

النفس إما تطغى أو تتزكى

كنا قد توقفنا في المرة السابقة عند نهاية قصة فرعون، هذا الطاغية الذي كان فيه مرضٌ من أصعب الأمراض وهو مرض طغيان النفس، النفس لابد أن تَكْبُر، إما تكبُر فتتزكَّى، تنمو نموًا مهذبًا، أو تكبر فتطغى، الكون كله يتَّسع، الكون كله ينمو، الكون كله يربُو، فيحتاج إلى رب... فالكون كله يتَّسع (والسَّمَاءَ بَنْيِنَاها بأَيدٍ وإنَّا لَمُوسِعُون)[الذاريات:٤٧]، والنفس كذلك، بذرة النفس تبدأ تكبر (فأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا)[الشمس:٨]، فإما أن تطغى وإما أن تتزكَّى.

ونحن قلنا في المرة السابقة: "التَّزكِّي" أن النَّفس تنمو ولكن مع طهارة، قالوا: الزكاة الزيادة في الشيء لكن مع جَوْدة في النوع، فتتخلص من الآفات.

{فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾}

العقوبة على المعاصي كلها

هذا المرض المستعصي، مرض طغيان النفس، الذي يمنع من الخشوع ويمنع من الخشية كان عند فرعون، وكانت هذه النهاية التي –والعياذ بالله– ازداد فيها الطُّغيان إلى أعلى حد، فربُّنا أتى لهم بنموذج لأعلى طغيان، أنه وصل لمرحلة –والعياذ بالله-: "أنا ربكم الأعلى"، "فأخذه الله"؛ مباشرة فاء التعقيب، (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى)[النازعات:٢٥]؛ نكال الآخرة والأولى أي عاقبهُ عقابًا في الآخرة وفي الدنيا، وبدأ بعقاب الآخرة لأنه أشد، وهذا كان اختيار الإمام ابن كثير.

والإمام الطبري اختار معنى: "نكال الآخرة والأولى" أن فرعون لما قال: "ما علمت لكم من إله غيري"[القصص:٣٨]، هذه كانت الكلمة الأولى، والكلمة الثانية التي هي الآخرة: "أنا ربكم الأعلى"[النازعات:٢٤]، فربُّنا عاقبه على هذه الكلمة والكلمة التي سبقت.

أحيانًا الإنسان يعمل معصية ضخمة فربنا لا يعاقبه، فيُثنّي على هذه المعصية الضخمة بمعصية أكبر فيعاقبه الله بالمعاصي جميعًا، لما يؤخَذ يعاقَب على كل شيء، يُحاسَب على النَّقير والقِطْمير، لذلك قالوا: "مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة"[الكهف:٤٩] بدأوا بالصغيرة ؛ لأنه لما زاد من الصغيرة وصل للكبيرة فربنا عاقبه على الصغيرة وعلى الكبيرة.

النَّكْل

"فأَخَذَه اللّهُ نَكَالَ الآخِرةِ والأُوْلَى"[النازعات:٢٥]؛ النَّكْل شيء مثل "الكلبشات" لكن بدل أن تُوضع في اليد تُربط في الأرجل بحيث تمنع الإنسان من الحركة، فقالوا أن تُنكِّل بواحد أو أن تكون العقوبة نكالًا ما معنى ذلك؟ أن الذي يراه لا يقترب من معصيته، الذي يرى هذا المربوط يقول: ما الذي فعله حتى لا أفعل مثله؟! فلما تُنكِّل بأحد: أي تمنع غيره من أن يفعل فعلته، لذلك عقاب فرعون أن الله –عز وجل– أبقى جثَّته وجعله آية للعالمين حتى لا يعمل أحد مثل الذي عمله (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) [النازعات:٢٥].

الاعتبار لمن يخشى

"إنَّ فِي ذَلِكَ" أي في هذه القصة، "لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى" مرة أخرى الكلام عن الخشية؛ "وأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى "[النازعات:١٩]، "إن في ذلك لعبرة لمن يخشى"[النازعات:٢٦]، وستأتي آية "إنما أنت منذر من يخشاها"[النازعات:٤٥].

ما معنى "عِبرة" في اللغة؟ العبرة هي الاعتبار والاتّعاظ، أصل كلمة "عَبَرَ" أي انتقل من مكان لمكان، العبور هو الانتقال مثلًا من الشاطئ لمكان آخر، هذا هو العبور.

لذلك يُقال: تعبير الرؤيا، ما معناه؟ أن الرؤية كانت خيالًا، وهناك من يؤوِّلها أي يفسّرها، يعني نقلها وعبر بها من الخيال إلى الحقيقة، وعَبْرة العين سُمّيت بهذا لأن الدموع انتقلت، فـ"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً" فما معنى الاعتبار والاتعاظ؟ أنك تنتقل من مرحلة كنت فيها لمرحلة ثانية، فأنت هكذا اعتبرت أو عبرت.

فقريش لو تركوا الطغيان وعبروا إلى الخشوع يكونوا قد أنقذوا أنفسهم، فربنا يقول: "إن في ذلك لعبرة"؛ هذه القصة كفيلة وكافية أن تنتقل بكم من مكان نزول العذاب وأن تُعاقبوا كما عوقِب فرعون، أن تعبر بكم إلى بر الأمان، إلى شاطئ الأمان، وهذا هو الاعتبار.

عندما نقول: واحد جاءته عبرة في واحد، ما معنى اعتبر به؟ يعني انتقل من مكان المعصية إلى مكان الطاعة، أنه بعدما كان عاصيًا أصبح ملتزمًا بطاعة الله –عز وجل–، هذا نقول عنه: اعتبر؛ لأنه عبر من شيء لشيء أو من حال الى حال؛ "إن في ذلك لعبرة" لكن ليس هذا لأي أحد، للذي يخاف الله "لمن يخشى"[النازعات:٢٦]، وكما قلنا سيأتي في الختام قوله: "إنما أنت منذر"[النازعات:٤٥]، ليس أي أحد سيستفيد، "من يخشاها" هو فقط الذي يستفيد.

{أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾}

هيمنة الله تعالى وقدرته في خلقه

بعد ذلك يقول ربنا: "ءأَنْتُم"، انظر صيغة "ءأنتم" استفهام، "ءأنتم" هذه كما قال: " أنا ربكم الأعلى"، لما قال "أنا"، ربنا قال له: ءأنت؟!!

ربنا يقول: "ءأَنْتُم أَشَدُّ خَلْقاً أمْ السَّمَاءِ بَنَاهَا"[النازعات:٢٧]؛ بمعنى يا قريش لو لم تروا فرعون وهو يغرق، ألم تروا السماء مبنيَّة؟! يا قريش طالما أنتم لم تروا فرعون وهو يغرق ويؤخَذ بالعذاب، ألم تروا كيف أن الأرض مبسوطة؟! ألم تروا الليل؟ ألم تروا النهار وهو يطلع؟ "وأغطش ليلها وأخرج ضحاها "[النازعات:٢٩]، ألم تروا "الجبال أرساها"[النازعات:٣٢]؟ ألم تروا قدرة ربنا؟

أنت يا من تقول:

أنا ربكم، ءأنت أشد أم الجبال؟ هل للجبال أن تدَّعي الربوبية؟!

ءأنت أشد أم السماء؟! هل للسماء أن تدَّعي الربوبية؟!

ءأنت أشد أم الأرض؟! هل للأرض أن تدَّعي الربوبية؟!

(قالتا أتينا طائعين)[فصلت:١١] إذا كان هذا قول السماء والأرض، ءأنت تقول أنا ربكم الأعلى! ءأنت!!

يا من تقول (أنا).. "أأنتم أشد خلقًا أم السماء بناها"؟!

سنجد أن الآيات حتى لو أن هناك نوع تشابه في سور مختلفة لكن تكون هناك اختلافات بحسب السياق، مثلًا سياق آيات الجنة في القرآن، سياق آيات النار، سياق آيات قدرة ربنا وخلق ربنا، بالرغم من أنك قد تشعر أن آيات الجنة فيها تشابه لكن كل سياق يركّز على معنى معيَّن في الجنة. كذلك في العذاب؛ كل سياق في العذاب يركز على معنى، كذلك في قدرة الله.

هنا الكلام عن خلق الله غير السياق الذي في سورة النبأ؛ سياق سورة النبأ كان فيه بيان النعمة "أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً"[النبأ:٦]؛ أنا جعلت لكم الأرض ومهّدتها لكم، وجعلت لكم الجبال كالوتد للخيمة "وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا"[النبأ:٧].

وكان هناك أيضًا مشهد القدرة، ثم مشهد التفضّل والمنّ "وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا"[النبأ:٨]، "وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ..." [النبأ:٩] جعلتك تنام وتستريح، "وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا"[النبأ:٩] وأطفأت لك الضوء بالليل حتى تستطيع أن تنام "وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا"[النبأ:١٠]، وأنرتُ لك بالنهار لكي تستطيع أن تعمل "وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا"[النبأ:١١]، "وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا* وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا* لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا"[النبأ:١٢-١٦].

لكن هنا المشهد مشهد الهيمنة، مثل مشهد نزع الروح، أيضًا ربنا يقول: "السَّمَاءُ بَنَاهَا"، لما ربنا يقول لها تُبنى تُبنى، ويرفعها فلا تقع "رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ ليلها.." أغطش ليلها أي الليل الذي لا رؤية فيه، "وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا" الضحى الذي يُنير كل شيء، الذي جعل في السماء هذه المتضادَّات هو الله، وكلمة أغطش وأخرج، "أَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا"، "وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا..." الأرض هذا التراب والطين كيف أخرج الله منها ماءً ومرعى؟ لو قلنا مرعاها اسم مكان، كيف جعل فيها أماكن للناس ترعى بالرغم أنها صخور وتراب؟

هيمنة الله –عز وجل–؛ قال للسماء ترتفع فترتفع، قال لها تستوي فتستوي، قال لها لا تسقط فلا تسقط، قال للأرض تمتد فتمتد، قال للجبال تقف فتقف أوتادًا، قال لليل يطلع يطلع، قال للنهار يخرج فيخرج، قدرة الله والهيمنة المطلقة، كما يقول للروح تخرج فتخرج، ليست الهيمنة والقدرة المطلقة على نفوس البشر فقط، بل على كل شيء في الحياة "أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا"، فتجد أن ألفاظ الآيات فيها قوة "أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ" الأرض العجيبة القوية الصخرية دحاها.

وطبعًا الكلام في دحاها كثير، بعض الذين تكلموا في الإعجاز العلمي قال أن دحاها هنا بمعنى جعلها كرويّة، واختلفوا هل الأُدحيَّة هي بيضة النعامة أم الحفرة التي تعملها، أيًا كان، وقال بعضهم إن الحسن والحسين كانوا يلعبون لعبة، يأتون بصخرة ويحفرون حفرة ويرمون الصخرة فالصخرة تدور والذي يُوقعها في الحفرة يكسب، فقالوا هذا هو مشهد الأرض كما قال الشيخ حبنكة الميداني في تفسيره، قال هذا هو مشهد الأرض ملقاة في الهواء تدور وشكلها كروي، لأن الحجارة التي كانوا يستعملونها حجارة كروية يرمونها، أيًا كان.

وبعض المتقدمين قال: دحاها ليس معناها هكذا، وإن كروية الأرض مستفادة من آيات أخر، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في أكثر من موضع هذا الكلام، ونقل الشيخ عطية سالم في تتمة أضواء البيان كلامًا كثيرًا من كلام العلماء للذي يريد أن يرجع لهذا الموضوع.

بعضهم قال دحاها يفسرها ما بعدها: "أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا".

الشاهد هيمنة الله –عز وجل– على الأرض سواء كانت جبالًا صخرية، سواء كانت سماءً، هواءً، أيًا كان، الله قادر على كل شيء، قادر أن يفعل كل شيء، قادر أن يسوّي كل شيء، "رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا"، لا شيء يستعصي على الله –عز وجل–، لا شيء يمتنع من الله –عز وجل–، الله –عز وجل– عزيز لا يُغالب سبحانه وتعالى..

"وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا"؛ قال لها تُخرج الذي فيها فأخرجت (وأذنت لربها وحُقَّت)[الانشقاق:٥]

"أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا"، الله –عز وجل– أرسى الجبال وأرسى بها الأرض، أرسى الجبال جعل الجبال ثابتة، وجعلها مُثبِّتة "وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا".

الفرق بين الإنسان والأنعام

لماذا فعل ربنا كل هذا؟ "مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ" عجيبة جدًا كلمة "ولأنعامكم"! كأن المعنى: هذه الآيات الكونية وهذه النعم الدنيوية تستفيدون منها أنتم والأنعام، ولكن الفارق بينكم وبين الأنعام هو أن هذه الآيات تذكِّركم بالله، وتشكرونه عليها... تشكرون الله وتذكرون الله عند رؤية هذه الآيات، الفارق بينكم وبين الأنعام أن الأنعام تفعل ما تشتهي وما تريد "يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ"[محمد:١٢]، الأنعام كيف تأكل؟ الأنعام لا تفكر قبل أن تأكل، لكن ربنا قال للإنسان: "فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ"[عبس:٢٤] يفكر، ليس كالأنعام يأكل فقط.. الأنعام آخر مستوى تفكيرها أن يوضع لها الطعام –كما سنقول في سورة عبس–، هي لا تبصر إلا هذه اليد التي وضعت لها الطعام، لكن لا تعرف ولا تفكر كيف جاء هذا الطعام، ودورة حياة المطر وكيف نزل والبذرة كيف خرجت، لا تفكر، المفروض أن لا يكون الإنسان هكذا، هناك فرق بينه وبين الأنعام وإلا سيكونون متساويين "مَتَاعًا لَّكُمْ ولأنعامكم"، وسنكمل هذا المعنى في سورة عبس إن شاء الله.

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

الطامة الكبرى

فجأة توقف مشهد النعم، ورجعنا مرة أخرى للدار الآخرة؛ "فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ" انظر للمد، يعني هذا يسمونه حتى بالإعجاز الصوتي أن لفظ الكلمة له معنى ودلالة، "فإذا" هنا فُجائية، فجأة وهم يتمتَّعون في الدنيا ونسوا أن هذه الآيات تدل على قدرة الله المطلقة سبحانه وتعالى، جاءت! نُسبت الطامة أنها جاءت، جاءت الطامة الكبرى، ما معنى الطامة؟ الطامة قالوا التي تطُمّ وتغطي كل شيء، طمَّ الماء يعني

غطَّى كل شيء، قريب من كلمة طغى الماء، فالطَّامة يعني ستأتِ مصيبة تُغطي على كل شيء في الدنيا، أحيانًا –والعياذ بالله ربنا يعافينا– واحد مثلًا سيارته تتعرض لحادث وابنه يمرض، خمسة أو ستة مصائب تحصل، وفجأة يأتيه خبر وفاة أحد عزيز جدًا، فيقول لك: هذه المصيبة أنستني كل شيء، هذه هي الطَّامة أي التي غطَّت على كل شيء... الكبرى أيضًا، أي لا شيء بعدها.

انتبهوا أن أسماء القيامة مهمة جدًا؛ يعني اسم التغابن له حكمة أن يأتي في سورة التغابن، ودراسة سورة التغابن توضح لماذا هذا الاسم جاء هناك، الصاخة –كما سيأتي في سورة عبس– تخص الأذن، تصخّ الآذان، تمنعها من سماع ما سواها، جاءت مع شخص في أول السورة لا يريد أن يسمع، الغاشية جاءت مع قول الله عز وجل في سورة الغاشية على البصر، فالغاشية ربنا يقول لهم طالما جاءت على البصر: "أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ"؟ "وَإِلَى السَّمَاءِ"[الغاشية:١٧]؟! طالما أن هناك شيئًا يغشي عينيك لماذا لا تفتحها وتنظر؟؟

هنا الطامة جاءت على العقل، إذا كانت الصاخة خاصة بالآذان، والغاشية خاصة بالأبصار وبعضهم قال القارعة خاصة بالقلوب، فممكن أن تكون الطامة خاصة بالعقول، تجعله يَذْهَل عن كل شيء، لا يفكر في أي شيء.

قلنا المرة السابقة الآية الكبرى، الآية التي لا يستطيع أن يتماسك أمامها فإما أن يؤمن وإما أن يجحد، وبما أنه مخيَّر فهو حر، الطامة الكبرى أيضًا التي لا يتماسك أمامها فينهار، لأنه هنا لم يعد مخيَّرًا، الكافر هنا سينهار والعياذ بالله، فالطَّامة أي المصيبة الكبرى التي تغطي على العقول ولا يفكر في شيء، ينسى كل شيء.

إذًا الطامة خاصة بالعقول، والصاخة بالآذان، والغاشية بالأبصار، والقارعة بالقلوب.

الطامة خاصة بالعقول، مصيبة تجعله ينسى كل شيء، لكن العجيب أن اسمها "الطامة الكبرى" أي تنسيه كل شيء، الآية التي بعدها يتذكر مباشرة، سيتذكر أم سينسى كل شيء؟!! هو سينسى كل شيء إلا شيئًا واحدًا فقط، لا يفكر إلا في شيء واحد في حياته، لا يفكر في أولاده ولا في أبيه ولا في أمه، بل لو رآهم يجري منهم، ولا في أموال ولا في سيارات ولا في الذي تعب لأجله، ولا في وظيفة عمل لأجلها ٢٠ سنة سيتركها، وشهادة حصل عليها في ٣٠ سنة سيمزقها ويجري يفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته، طامة عظيمة تجعله يتذكر شيئًا واحدًا فقط: "يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ"[النازعات:٣٥]،

كأن الطامة هذه ستجعله ينسى كل شيء إلا شيئًا واحدًا؛ الذنوب، الطاعات، ما سعى، عمله في الدنيا فقط.

يوم يتذكر الإنسان ما سعى

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "كل الناس يغدو"[١]، كل الناس تتحرك، كل الناس تعمل، كما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم "أصدق الأسماء حارث وهمَّام"[٢]، أصدق الأسماء بمعنى: قد يكون اسم شخص ما (كريم) لكن هو حقيقةً ليس كريمًا، فالاسم هنا ليس منطبقًا عليه، لكن لو شخص اسمه حارث أو همام هذا منطبق عليه؛ لأن الناس تحرُث أي تفعل، وهمَّام يعني عنده همّ، الناس ستبذل على كل حال، الناس ستسعى على كل حال، إما أن تسعى في الخير وإما أن تسعى في الشر.

ومن اللطائف هنا آية "يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى" مع آية "ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى"، سوف يأتِ اليوم الذى يتذكر فيه الفراعنة سعيهم لهدم الدين، سوف يأتِ اليوم الذى يتذكر فيه المتكبرون سعيهم لهدم دين الله عز وجل، سوف يأتِ اليوم الذى يتذكر فيه كل السحرة على مدار الزمان محاولاتهم أن يسحروا أعين الناس ويصرفوهم عن الدين، سوف يتذكر الجميع هذا السعي، أي أن أهل الباطل الذين يتعبون في الترتيب والتخطيط، سيتذكرون هذا التعب الذى بذلوه في الباطل والعياذ بالله، وأهل الإيمان سيتذكرون كل لحظات السعي والتعب من أجل الحق.

"يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى"، ما هو هذا اليوم؟ إنه يوم الطامة، من المفترض ألّا يتذكر أحد أي شيء من شدة هول هذا اليوم الذي قال الله عز وجل عنه "يوم ترونها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ"[الحج:٢]، وكلمة مرضعة تختلف عن مرضع، مرضع أي في فترة الرضاعة التي تُقدر بسنتين، وهى بدون تاء تأنيث لأنه لا يصلح إلا للإناث فلا تحتاج إلى تاء تأنيث، أما مرضعة فهي وصف لها في لحظة الرضاعة، لحظة إرضاعها لطفلها وهى تنظر إليه وتحنو عليه وهي من أجمل اللحظات للأم، فليس

[١] [عن أبي مالك الأشعري:] الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- ما بيْنَ السَّمَواتِ والأرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها.
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٢٣ • [صحيح] •

[٢] أحبُّ الأسماءِ إلى اللَّهِ عبدُ اللَّهِ، وعبدُ الرَّحمنِ وأصدقُ الأسماءِ: حارثٌ وَهمّامٌ، وأقبحُها: حربٌ ومُرَّةُ
ابن تيمية (٧٢٨ هـ)، مجموع الفتاوى ٤٣/٧ • صحيح •

متوقعًا أبدًا أن تُلقي وليدها وخاصة في هذه اللحظة، ولكنها من فرط ذهولها تفعل، هذه هي الطامة الكبرى، التي تجعلها تذهل عن طفلها الرضيع وكأنه غير موجود، وكأنها لم تكن توًا ترضعه، لا تنساه فقط فالنسيان قد يحدث عرضًا ولكنها تذهل عنه بالكلية.

عندما تحل الطامة الكبرى ترى الناس سُكارى، لا يشغلهم إلا شيء واحد فقط، الذنوب، الذنوب التي نسوها، المواقف التي يودون ألّا يتذكروها، والتي كانوا يصمون آذانهم إذا ما ذكّرهم أحد بها، لكن هذا اليوم "يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى"، بعضهم قال من اللطائف أن كلمة الإنسان أصلًا من كلمة (نسي) على أحد الأقوال، أو من (الأُنس) أي أن الإنسان يُستأنس به، سواء الألف زائدة أو أصلية، أيًا كان فقالوا: "يتذكر الإنسان" لأن من طبيعته أنه ينسى لكن في هذا اليوم يتذكر كل شيء.

"يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى" وأيضًا من اللطائف في الآية، قالوا ما الفرق بين يذّكر ويتذكّر، لماذا لم يقل الله عز وجل يوم يذَّكر الإنسان ما سعى؟ وقال "يوم يتذكَّر"؟ بعض العلماء قالوا: يذَّكر مثلما جاءت في سورة عبس "أو يذكر فتنفعه الذكرى"[عبس:٤]، يذَّكر أي التذكر الإجمالي، لكن يتذكر فيها معنى "التذكر التفصيلي"، لما أتت الكلمة مفككة ومفصلة أصبح هناك تفصيل في المعنى أيضًا، "يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى"، لن يتذكر فقط أنه كان سيئًا أو كافرًا –والعياذ بالله– بشكل إجمالي، ولكنه سيتذكر تفاصيل المعاصي، سيتذكر لحظات عُرِضَ عليه القرآن فيها ورفض، سيتذكر لحظات الهمّ بالمعصية، "يَوْمَ يَتَذَكَّرُ" سيتذكر تفصيل لحظات المعصية، وهذا مشهد يصيب الإنسان بالفزع، لما يأتي يوم القيامة ويرى الكون كله يتغير، وهو لا يشغله شيء سوى التفكير في ذنوبه، يمر والده من أمامه، تصرخ أمه، تنادي عليه أخته، زوجته، أولاده، الكل يستغيث، وهو لا يفكر إلا في ذنوبه والعياذ بالله.

"يوم يتذكر الإنسان ما سعى * وبرزت الجحيم".. تظهر رُغمًا عنهم وتبرز أمام الجميع "برزت الجحيم لمن يرى" وكأن الجهد الإعلامي الساحر الذي كانوا يبذلونه لكي يصرفوا الناس عن تذكر الدار الآخرة، وعن التفكير في النار، كل هذا الجهد لتغطية خبر النار سيذهب سُدى، وستظهر النار رُغمًا عنهم، كل المجهود الذي بذلوه كي لا يتحدث الناس عن النار أو يسمعوا عنها، سيندمون عليه ندمًا شديدًا عندما تظهر أمامهم رُغمًا عنهم (وبرزت الجحيم لمن يرى).

وسوف ينقسم الناس إلى قسمين "فأما من طغى" –مثلما ذُكر في أول السورة: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾– "فأما من طغى وءاثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى" ، "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى" .

إذًا هناك فريقان، وكل فريق سلك طريقًا معينًا اختاره لنفسه، أي أن الأمر باختياره، كلمة ﴿ءاثر الحياة الدنيا﴾ تدل على أنه لم يجد نفسه عاصيًا، وإنما هو اختار الدنيا، وقاوم نفسه عندما همت بفعل طاعات محببة، ورفضها، وسمع آيات كبرى ولكنه رفض أن يُخضع لها عقله وسمع آيات القرآن ورفض أن يتأثر بها. قلنا أن التركيز في السورة على النفس، النفس التي تُنزع في أول السورة، والتي رفضت أن تتزكى في منتصف السورة، ثم أتى أخطر مرض في النفس وهو مرض "الطغيان" في آخر السورة، فربنا عز وجل يقول أن الطغيان يجعل الإنسان يُؤثر الحياة الدنيا على الآخرة ﴿وءاثر الحياة الدنيا﴾.

إمّا أنه طغى ولذلك اختار الحياة الدنيا، أو أنه اختار الحياة الدنيا فجعلته يطغى، أي أن "طغى" إما نتيجة بعدما اختار الحياة الدنيا ﴿وءاثر الحياة الدنيا﴾ فطغت نفسه، أو لأن نفسه طاغية أصبح لا يقبل كلامًا من أحد وبالتالي اختار الحياة الدنيا، وأيًا كان فالمحصلة واحدة في النهاية.

﴿فأما من طغى وءاثر الحياة الدنيا﴾، انتبه لاستعمال كلمة الدنيا هنا، الدنيا تعني "السُفلى" أي أنه اختار المكان الأسفل، اختار الحياة السفلى، اختار أن يكون في الأسفل.

كلمة آثر لها دلالة عظيمة أيضًا، "الأثر" عندما يقولون هذا أثر هذا أي أنه اتبع خطاه وسار على طريقه، ترك أثرًا: أي أبقى شيئًا بعده، وكلمة آثر بمعنى يستبقي لنفسه شيئًا، يؤثرون على أنفسهم: أي يختارون بقاء إخوانهم على بقاء أنفسهم، ﴿ولو كان بهم خصاصة﴾[الحشر:٩] حتى لو كانوا يواجهون الموت فسيختارون بقاء إخوانهم على بقاء أنفسهم، فكلمة آثر فيها معنى البقاء، فقالوا: "آثر الحياة الدنيا " أي ظن أنها ستبقى فاختارها، توهم أنها باقية فاختارها، ﴿كلا بل تحبون العاجلة﴾[القيامة:٢٠] يختارون الأسرع.

هنا يقول الله عز وجل: (وءاثر الحياة الدنيا) ظن أنها ستبقى، مثلما جاء في سورة الهمزة (ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالًا وعدده يحسب أن ماله أخلده)[الهمزة:١-٣] يظن أن المال سيجعله خالدًا، يظن أن هذا المال سيجعله مخلدًا في الدنيا، فهنا (ءاثر الحياة الدنيا) اختار الحياة السفلى، وهو بنفسه الذي اختار، هو بنفسه من قرر أن يمشي في هذا الطريق، اعتقد أو أوهم نفسه أن هذه الدنيا ستبقى (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا)[يونس:٧] ليس هذا فقط (واطمئنوا) يقول أنا مطمئن أن الدنيا لن تذهب، أنا معي كل الأسباب، لو كان الإهلاك بالريح فسوف أعيش في أماكن تمنع عني الريح، لو كان الإهلاك بالزلازل سوف أستخدم جهاز قياس الزلازل وسأتخذ احتياطاتي، هو يظن (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله)[الحشر:٢].

"آثر الحياة الدنيا" كان لديه اختيارات، دائمًا ما كان يُعرَض عليه طريقان عليه أن يختار بينهما، عليه أن يُقرر هل يتبع هذا أم ذاك، فاختار الحياة الدنيا!

فما هي نتيجة اختياره هذا؟ "فإن الجحيم هي المأوى "

المأوى في اللغة: أي المكان الذي تلجأ إليه عند الهرب، المكان الذى تقصده عندما تفزع لتطمئن فيه، المكان الذى ترتاح فيه بعد التعب، يقولون: آوى إلى فراشه، كان يجري فآوى إلى كذا، فآواهم المبيت إلى غار، فتخيل عندما يكون المكان الذي من المفترض أن يذهبوا إليه ليطمئنوا بعد الفزع ويستريحوا بعد التعب، تخيل أن يكون هذا المكان هو الجحيم والعياذ بالله، وهم الذين اختاروها، عندما تركوا أنفسهم مُرفَّهة، ولم يمنعوها ولم يروضوها (فإن الجحيم هي المأوى).

أقسام الناس يوم القيامة: من نهى النفس عن الهوى

أما الفريق الآخر (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى)، هذا من المعاني المهمة جدًا في السورة، (نهى النفس عن الهوى) ذكرنا أن سورة النازعات تُركز على النفس وطغيانها، النفس فيها هوى، ولم يأمرنا الله عز وجل باستئصال هذا الهوى من النفس بالكلية، ولذلك لما جاء بعض الصحابة يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطعوا شهوتهم تمامًا بالاختصاء، رفض النبي صلى الله عليه

وسلم، لماذا؟ لأن الشهوة ستبقى مُركبة في النفس، هكذا خُلقت، ولكن دورك أنت أن تمنع هذه الشهوة أن توقعك في الحرام... هذا هو "التكليف"، أن تظل الشهوة بداخلك ولكنك تمنعها عن المحرمات.

فكلمة نهى النفس عن الهوى أي أنه كلما طلبت النفس فتقول لها: لا، إذًا فمن لم يستطع قول لا لنفسه سيدخل النار –والعياذ بالله–، فكلمة (نهى النفس) أي أنه ينهاها، فللنفس حاجات، وستظل للنفس حاجات دومًا، ستظل تهوى أمورًا من الحرام، ودورك لا أن تنزع هذا منها لأنه مركب فيها، هو الجزء الطيني منها، لكن دورك أن تقول لها لا (ونهى النفس عن الهوى). انتبه معي لهذه النقطة، لكثرة ما تقول لنفسك لا؛ نفسك هي التي ستطلب منك أن تقول لها لا، ستبدأ تُروَّض وتتهذَب وتُزَكّى. تطلب حرامًا تقول لها لا، تطلب توسُّعًا في المباحات، تقول لها لا، تنهى نفسك، فتصبح نفسك مُروَّضة مطيعة، وعندما تموت تقول لها الملائكة: "اخرجي"[3]، فتخرج، وتكون من الناشطات. لمَ؟ لأنك نهيت نفسك كثيرًا، فأصبحت نفسك مروضة، حينما تموت تخرج بسهولة. النفس الثانية التي ءاثر صاحبها الحياة الدنيا كلما قالت له نفسه أمرًا قال لها: "سمعًا وطاعة"، يحاول قول لا لنفسه فتستأسد عليه فيذعن لها، فأصبحت نفسه مدللة، وحينما تموت تقول لها الملائكة: "اخرجي" فتقول لا! هذا واحد لم يسبق أن قال لنفسه لا، ويفعل ما يحلو له وكل ما تأمره به نفسه، و يختار الدنيا، فتتفرق نفسه في الجسد، نفس غير مروضة فتُضرب، والجسد يُضرب، على وجوههم وعلى أدبارهم، يظل يُضرب حتى تخرج نفسه وتُنتزَع منه، إذًا علاقة النازعات والناشطات بكلمة طغى وتزكى ونهى النفس عن الهوى، النفس التي تُروَّض تخرج بسهولة عند الموت، والنفس التي لم تُروَّض تُنزَع ويُغرَق في نزعها لأنها لم تُروَّض، لذلك عندما ذهب

---

[3] [عن أبي هريرة:] الميتُ تحضُره الملائكةُ، فإذا كان الرجلُ الصالحُ قال: اخرُجي أيتُها النفسُ الطيبةُ كانتْ في الجسدِ الطيبِ اخرُجي حميدةً وأبشِري بروحٍ وريحانٍ وربٍّ غيرِ غضبانَ قال: فلا يزالُ يقالُ لها ذلك حتى تخرجَ ثم يعرجُ بها إلى السماءِ فتفتحُ لها، فيقالُ مَن هذا؟! فيقولونَ: فلانٌ، فيقولونَ: مرحبًا بالنفسِ الطيبةِ كانتْ في الجسدِ الطيبِ، ادخُلي حميدةً وأبشِري بروحٍ وريحانٍ وربٍّ غيرِ غضبانَ قال: فلا يزالُ يقالُ لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماءِ التي فيها اللهُ - تبارَك وتعالى - فإذا كان الرجلُ السوءُ قال: اخرُجي أيتُها النفسُ الخبيثةُ كانتْ في الجسدِ الخبيثِ اخرُجي ذميمةً وأبشِري: بـ حميمٍ وغسّاقٍ وآخرَ مِن شكلِه أزواجٌ قال: فلا تزالُ يقالُ لها ذلك حتى تخرجَ، ثم يعرجُ بها إلى السماءِ فيقالُ: مَن هذا؟ فيقالُ: هذا فلانٌ فيقالُ: لا مرحبًا بالنفسِ الخبيثةِ كانتْ في الجسدِ الخبيثِ ، اخرُجي ذميمةً فإنا لا نفتحُ لكَ أبوابَ السماءِ، فترسلُ منَ السماءِ ثم تصيرُ إلى القبرِ، فيجلسُ الرجلُ الصالحُ في قبرِه غيرَ فزِعٍ، ولا مشعوفٍ، فيقالُ له: فيمَ كنتَ؟ فيقولُ: كنتُ في الإسلامِ فيقالُ: ما هذا الرجلُ؟ فيقولُ: محمدٌ رسولُ اللهِ □ جاءنا بالبيناتِ مِن عندِ اللهِ فصدَّقناه فيقالُ: هل رأيتَ اللهَ؟ فيقولُ: ما ينبَغي لأحدٍ أن يرى اللهَ، فتفرجُ له فرجةٌ قبلَ النارِ فينظرُ إليها يحطِمُ بعضُها بعضًا، فيقالُ له: انظُرْ إلى ما وقاكَ اللهُ، ثم تفرجُ له فرجةٌ قبلَ الجنةِ فينظرُ إلى زهرتِها وما فيها فيقالُ: هذا مقعدُكَ، ويقالُ له: على اليقينِ كنتَ وعليه مِتَّ وعليه تبعثُ إن شاء اللهُ، ويجلسُ الرجلُ السوءُ في قبرِه فزِعًا مشعوفًا، فيقالُ له: فيمَ كنتَ؟ فيقولُ: لا أدري، فيقالُ له: ما هذا الرجلُ؟ فيقولُ: سمِعتُ الناسَ يقولونَ قولًا فقُلتُه فيفرجُ له قبلَ الجنةِ فينظرُ إلى زهرتِها وما فيها فيقالُ له انظُرْ إلى ما صرَف اللهُ عنكَ ثم تفرجُ له فرجةٌ إلى النارِ فينظرُ إليها يحطِمُ بعضُها بعضًا فيقالُ له: هذا مقعدُكَ، على الشكِّ كنتَ وعليه مِتَّ وعليه تُبعَثُ إن شاء اللهُ. رواه أحمدُ بنُ منيعٍ والحارثُ وغيرُهما، وستأتي بقيةُ الحديثِ في بابِ السؤالِ في القبرِ
البوصيري (٨٤٠ هـ)، إتحاف الخيرة المهرة ٤٤٠/٢ • سنده صحيح • أخرجه ابن ماجه (٤٢٦٢)، وأحمد (٨٧٥٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٤٢) باختلاف يسير. •

سيدنا موسى إلى فرعون قال له أتيت لك بعلاج لنفسك، علاج لأكثر الأمراض المستعصية: الكبر والطغيان، (هل لك إلى أن تزكى) أنا لديَّ العلاج، لكنه رفض أخذ العلاج، فهنا (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى) أن يقول لنفسه لا، فتصبح مروضة، فتخرج كالقطرة من في السقاء[٤]؛ لأنها أصبحت مهذبة... على قدر ترويض النفس على قدر سهولة خروجها، وعلى قدر استئساد النفس وعدم ترويضها على قدر ما ستُنزَع والعياذ بالله.

---

٤ [عن البراء بن عازب:] خَرَجْنا مع النَّبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، في جِنازةِ رَجُلٍ مِن الأنصارِ، فانتهَيْنا إلى القَبرِ، ولمَّا يُلحَدْ، فجَلَسَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وجَلَسْنا حَوله، كأنَّ على رُؤوسِنا الطَّيرُ، وفي يدِه عُودٌ يَنكُتُ في الأرضِ، فرَفَعَ رأسَه، فقال: استَعيذوا باللهِ مِن عَذابِ القَبرِ، مَرَّتَينِ، أو ثَلاثًا، ثُمَّ قال: إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا، وإقْبالٍ مِن الآخِرةِ، نَزَلَ إليه ملائكةٌ مِن السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهم الشَّمسُ، معهم كَفَنٌ مِن أكفانِ الجنَّةِ، وحَنوطٌ مِن حَنوطِ الجنَّةِ، حتى يَجلِسوا منه مَدَّ البَصرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ، حتى يَجلِسَ عندَ رأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مَغفرةٍ مِن اللهِ ورِضوانٍ، قال: فتَخرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطرةُ مِن فِي السِّقاءِ، فيَأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعوها في يدِه طَرفةَ عَينٍ حتى يَأخُذوها، فيَجعَلوها في ذلك الكَفنِ، وفي ذلك الحَنوطِ، ويَخرُجُ منها كأطيَبِ نَفحةِ مِسكٍ وُجِدَتْ على وَجهِ الأرضِ، قال: فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ، يَعني بها، على مَلأٍ مِن الملائكةِ، إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ، بأحسنِ أسمائِه التي كانوا يُسمُّونَه بها في الدُّنْيا، حتى يَنتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنْيا، فيَستَفتِحون له، فيُفتَحُ لهم فيُشيِّعُه مِن كلِّ سماءٍ مُقرَّبوها إلى السَّماءِ التي تَليها، حتى يُنتَهى به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَ عبدي في عِلِّيِّينَ، وأعيدوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خَلَقتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى، قال: فتُعادُ رُوحُه في جَسدِه، فيَأتيه مَلَكانِ، فيُجلِسانِه، فيَقولانِ له: مَن ربُّكَ؟ فيَقولُ: ربِّيَ اللهُ، فيَقولانِ له: ما دِينُكَ؟ فيَقولُ: دِينيَ الإسلامُ، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيَقولُ: هو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَقولانِ له: وما عِلمُكَ؟ فيَقولُ: قَرَأتُ كِتابَ اللهِ، فآمَنتُ به وصَدَّقتُ، فيُنادي مُنادٍ في السَّماءِ: أنْ صَدَقَ عبدي! فأفرِشوه مِن الجنَّةِ، وألْبِسوه مِن الجنَّةِ، وافتَحوا له بابًا إلى الجنَّةِ، قال: فيَأتيه مِن رَوْحِها، وطِيبِها، ويُفسَحُ له في قَبرِه مَدَّ بَصرِه قال: ويَأتيه رَجُلٌ حَسنُ الوَجهِ، حَسنُ الثِّيابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أبشِرْ بالذي يَسُرُّكَ، هذا يومُكَ الذي كنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ له: مَن أنت؟! فوَجهُكَ الوَجهُ يَجيءُ بالخيرِ، فيَقولُ: أنا عملُكَ الصَّالحُ، فيَقولُ: ربِّ، أقِمِ السَّاعةَ؛ حتى أرجِعَ إلى أهلي ومالي. قال: وإنَّ العَبدَ الكافرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِن الآخِرةِ، نَزَلَ إليه مِن السَّماءِ ملائكةٌ سُودُ الوُجوهِ، معهم المُسوحُ، فيَجلِسونَ منه مَدَّ البَصرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ، حتى يَجلِسَ عندَ رأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخَبيثةُ، اخْرُجي إلى سَخطٍ مِن اللهِ وغَضبٍ، قال: فتَفرَّقُ في جَسدِه، فيَنتزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِن الصُّوفِ المَبلولِ، فيَأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعوها في يدِه طَرفةَ عَينٍ حتى يَجعَلوها في تلك المُسوحِ، ويَخرُجُ منها كأنْتَنِ ريحِ جيفةٍ وُجِدَتْ على وَجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّون بها على مَلأٍ مِن الملائكةِ، إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخَبيثُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ، بأقبحِ أسمائِه التي كان يُسمَّى بها في الدُّنْيا، حتى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنْيا، فيُستفتَحُ له؛ فلا يُفتَحُ له، ثُمَّ قَرَأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: {لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [الأعراف: ٤٠]، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفلى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرحًا، ثُمَّ قَرَأَ: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: ٣١]، فتُعادُ رُوحُه في جَسدِه، ويَأتيه مَلَكانِ، فيُجلِسانِه، فيَقولانِ له: مَن ربُّكَ؟ فيَقولُ: هاهْ هاهْ لا أدْري! فيَقولانِ له: ما دِينُكَ؟ فيَقولُ: هاهْ هاهْ لا أدْري! فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيَقولُ: هاهْ هاهْ لا أدْري! فيُنادي مُنادٍ مِن السَّماءِ أنْ كَذَبَ، فافرِشوا له مِن النَّارِ، وافتَحوا له بابًا إلى النَّارِ، فيَأتيه مِن حَرِّها، وسَمومِها، ويُضيَّقُ عليه قَبرُه حتى تَختلِفَ فيه أضْلاعُه، ويَأتيه رَجُلٌ قَبيحُ الوَجهِ، قَبيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أبشِرْ بالذي يَسوؤكَ، هذا يومُكَ الذي كنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ: مَن أنت؟! فوَجهُكَ الوَجهُ يَجيءُ بالشَّرِّ، فيَقولُ: أنا عملُكَ الخَبيثُ، فيَقولُ: ربِّ، لا تُقِمِ السَّاعةَ.

شعيب الأرنؤوط (١٤٣٨ هـ)، تخريج المسند ١٨٥٣٤ • إسناده صحيح • أخرجه أبو داود (٤٧٥٤) باختلاف يسير، والنسائي (٢٠٠١) مختصراً، وأحمد (١٨٥٣٤) واللفظ له •

إذن فأكثر ما يساعدك أن تقول لنفسك لا (وأما من خاف مقام ربه) تذكر هذه اللحظة، لحظة الوقوف بين يدي الله، أن الواحد منا سيقف عريانًا، فردًا بين يدي الله، يضع رأسه في الأرض ويقرره الله بذنوبه، هذه اللحظة التي ينكرها المشركون، هذه اللحظة التي يكرهها الحكام والمستبدون، الظلمة الطغاة (إنه طغى) لم؟ لأنه طاغية يريد من الناس أن يقفوا أمامه أذِلَّة، فيقول له ربنا لا بد أن تتذكر اللحظة التي ستقف فيها ذليلًا بين يديّ، لكنه يرفض هذا، لذلك رفض إبليس السجود وقال أأسجد لمن خلقت طينًا؟

هذا ما يكسر نفس الإنسان؛ الوقوف بين يدي الله (وأما من خاف مقام ربه)، الذي يستحضر هذه اللحظة دائمًا، و يستطيع أن يقول لنفسه لا، يقول لنفسه نحن سنقف بين يدي الله وسيسألنا، تقول له نفسه أريد هذا وهذا.. لا! انتبه لكلمة الهوى –الهوى بمقاييس اللغة– الإمام ابن فارس قال معنى رائع، قال: الهوى فيه معنيان، الخلو "الفراغ"، والسقوط فقال: هوى النفس: هو الخلو من كل خير (ليس فيها خير يمنعها) فبالتالي تسقط في كل شر، الخلو من كل خير فتسقط في كل شر.

كان يُعرض عليه (تزكى) كان يُعرض عليه أن تُبدَّلْ نفسه الفارغة والمليئة بالشرور بنفس تُنقى وتُطهر وتنمو، فرفض فأصبح (نهى النفس عن الهوى) فالهوى هو السقوط، انتبه إلى التناسب الجميل ما بين (آثر الحياة الدنيا) هو بنفسه اختار الحياة الدنيا "أي السفلى"، وبين (الهوى) أن تأتي نفسه تريد أن تقع فيقول لها: لا (نهى النفس عن الهوى)، فيرفع نفسه، كلما أرادت نفسه أن تقع يقول لها: لا (مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض)[التوبة:٣٨]، فالمجاهد ينزع هذه النفس ويقول لها: اصعدي لأعلى (إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها)[٥] ، لذلك هنا كلمة (ونهى النفس عن الهوى) أي يمنع نفسه من أن تسقط في الشهوات عكس (ءاثر الحياة الدنيا)، هو الذي يقول لنفسه: تعالي ننزل إلى الشهوات والعياذ بالله، الحياة الدنيا أي الحياة السفلى، فكلمة الهوى والسقوط إلى أسفل تشبه كلمة الدنيا "الحياة الدنيا" لكن هذا يمنعها والآخر يختار الحياة الدنيا (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى)؛ إذًا الذي يأوي للجنة كان يقول لنفسه: لا لا، كانت نفسه تشتهي أشياء لكنه منعها فهذا سيأوي إلى الجنة، الآخر كان لا يهتم، ويترك لنفسه الحبل على غاربه (يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام)[محمد:١٢] فهذا سيأوي إلى الجحيم.

---

٥ إنَّ اللَّهَ يحبُّ معاليَ الأمورِ ويَكرَهُ سَفسافَها
الألباني (١٤٢٠ هـ)، صفة الفتوى ٩٣ • صحيح •

ولا يجمع الله عزوجل أبدًا على عبدٍ مخافتين ولا أمنين[٦]، فإن خافه... لو العبد خاف الله عزوجل في الدنيا أمّنه يوم القيامة، فكذلك العبد الذي ينهى نفسه ويروضها، فتأتِ لحظة الموت "والناشطات نشطًا" فتخرج الروح بسهولة وتسبح في السماء، وتتسابق على حسب الأعمال، وتقترب من الله عزوجل والفردوس الأعلى وتتنعم في الجنة (وأما من خاف مقام ربه)، إذًا هذه اللحظة لا تغيب عن أعيننا أبدًا، الوقوف بين يدي الله، والسؤال عن النقير والقطمير (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى).

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

أسئلة أهل الباطل

و بعد كل هذا البيان، بعد كل هذا البيان المعجز من أول النازعات ثم الراجفة ثم الرادفة، ثم منظر الاستهزاء، (يقولون أءنا لمردودون) ثم منظر فرعون وهو يطغى، ثم وهو يُهلَك، ومنظر السماء (وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) ثم مرة أخرى الطامة الكبرى، ثم الجنة، ثم النار، و مازالوا –بصيغة المضارع- (يسئلونك عن الساعة)، ويسئلونك هذه تُعيدنا لأول النبأ (عم يتساءلون * عن النبأ العظيم)[النبأ:١-٢] مازالوا في مجالس التساؤلات المستهزئة!! بعد سورة النبأ وسورة النازعات لازلتم في تلك الجلسة المليئة بالسخرية والاستهزاء وتتساءلون!! ثم عن ماذا تسألون؟ (يسئلونك عن الساعة) بدأتم في الانتباه؟! (أيان مرساها) استبعاد، أي ستأتي بعد زمن طويل، سؤال استهزاء، الذي يخاف يسأل ماذا أفعل؟ فمثلًا الطالب المجتهد تجده أيام الامتحانات مشغول أكثر ويذاكر ويسأل كيف وماذا أذاكر لاقتراب موعد الامتحان، الآخر كل همه قبل موعد الامتحان بيومين وقتها نذاكر؛ لذلك الذين آمَنُوا مشفقون منها، خائف من الساعة، فهذا طالما يسأل عن الموعد فهو لا يريد أن يعمل لها (أيان مرساها)، لو كان يريد أن يعمل لقال: ماذا أعمل، أريد أن أنجو؟ كيف أنهى نفسي عن الهوى؟ أريد أن أتزكى، لكن هذا مازال

---

٦ [عن أبي هريرة:] عن النَّبيِّ ☐ يَروي عن ربِّه جلَّ وعلا قال: وعزَّتي لا أجمَعُ على عبدي خوفَيْنِ وأمنَيْنِ إذا خافني في الدُّنيا أمَّنْتُه يومَ القيامةِ وإذا أمِنَني في الدُّنيا أخَفْتُه يومَ القيامةِ
ابن حبان (٣٥٤ هـ)، صحيح ابن حبان ٦٤٠ • أخرجه في صحيحه

يتساءل سؤال المستهزئ، مازالوا بصيغة المضارع جالسين الجلسات الاستهزائية (يسئلونك عن الساعة أيان مرساها).

فربنا يقول للنبي صلى الله عليه وسلم محذرًا، يجب أن ننتبه جميعًا، من القواعد القرآنية الهامة: ((ليس كل أسئلة أهل الباطل يُجاب عليها)) لأنه أحيانًا يكون هدف أسئلتهم –وهذا كثير– صرف الداعية عن طريقه، مثلما قال ربنا في سورة الزخرف (ما ضربوه لك إلا جدلًا)[الزخرف:٥٨]، هناك أسئلة وأمثلة يأتون بها لأجل الجدال فقط، فربنا يحذر النبي –صلى الله عليه وسلم– من أن يلتفت إليهم ويحقق لهم طموحاتهم وأمانيهم وينسى أساس دعوته –صلى الله عليه وسلم–، فربنا يقول له:(فيم أنت من ذكراها)؛ أي في أي شيء أنت من ذكراها، أي ليس عندك أي قدرة ولا معرفة تستطيع بها الوصول إلى موعد الساعة، يسألونك عن شيء خارج الطاقة، خارج الطاقة البشرية، وخارج كل طاقة المخلوقات (فيم أنت من ذكراها).

طريق الدعاة الأساسي هو الإنذار

(إلى ربك) أي وحده –سبحانه وتعالى– (إلى ربك منتهاها) لا يعلم موعدها إلا الله عزوجل، يقول له: (إنما) بصيغة الحصر والقصر (إنما) (إنما أنت منذر)، ليس دورك أن تقول لهم متى موعدها، ليس دورك أن تحقق لهم طلب الآيات الحسية التي يريدونها، هذا ليس دورك! لئلا تصرف أسئلةُ أهل الباطل الدعاةَ، فينشغلوا بها و يتركوا طريقهم الأساسي، طريق الدعاة الأساسي هو الإنذار (إنما أنت منذر من يخشاها)، طبعًا أنت منذر لكل الناس، لكن ربنا يعرِّفُه ابتداءً حتى لا تأسَ عليهم ولا تأسف عليهم، (فلعلك باخع نفسك)[الكهف:٦] فلن يستفيد منك إلا الذي يخاف؛ الذي يخاف من داخله، فطرته لا زالت سليمة وخائف من أن له رب وسيبعثه، و يسمع القرآن ويتأثر به؛ فهذا من سيستفيد، غير ذلك فلن يستفيد، الطاغية –صاحب النفس المستأسدة– و الذي يريد أن يفجر (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه)[القيامة:٥] الذي يريد أن ينطلق في الشهوات، الذي يريد للناس أن يظلوا أذلاء بين يديه لن يستفيد! (إنما أنت منذر من يخشاها) فلا تضيع وقتك معهم، ركز في وظيفتك، لذلك عندما قال له ربنا في آخر سورة النازعات: (إنما أنت منذر من يخشاها) عاتبه في السورة التي تليها؛ لأنه قال له: إن دورك الإنذار فقال (عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما

من استغنى)[عبس:١-٥] آخر سورة النازعات قال له: لا تنشغل بالمستغنين، انشغل بالمقبلين، فعاتبه في السورة التي تليها -صلى الله عليه وسلم- وسنتكلم عن ذلك إن شاء الله المرة القادمة.. (إنما أنت منذر من يخشاها).

مشهد الختام

(كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) عجيب جدًا مشهد الختام، فبعد أن بُعثوا -بعد البعث- قالوا : كم مكثنا في الدنيا؟ مكثنا في الدنيا إما من العصر للمغرب أو صباح هذا اليوم معه، يعني ما نذكره هو ذلك النهار، انظر إلى التضاد ما بين أياااان مرساها، شخص يستطيل الحياة الدنيا ويقول: وقت طويييل حتى تأتي القيامة (أيان يوم القيامة)[القيامة:٦]، لذلك مباشرة جاء بعدها (فإذا برق البصر)[القيامة:٧] في سورة القيامة، هنا أيضًا (أيان مرساها)، فجاء لهم ربنا بمشهد استقصار الحياة الدنيا، فانتبِهوا لهذه المشاهد المتضادة، ربنا يقول له: كنت تستبعد حدوث هذا وتستطيل الحياة، أنت وآباؤك وأجدادك، وتنتظر حياة أحفادك وأحفاد أحفادك فمستبعد القيامة، فيأتي له بمشهد بعد أن بُعث وأنه بالفعل قام وأنه يستقصر، يقول لك: ما هذا أنا لم أعش وقتًا، فلماذا كنت تقول أيان مرساها؟ فجاء بالمشهد (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحاها).

أسلوب القرآن يخاطب المنكِر على أن الشيء الذي ينكره هو أمر واقع، وأنه سيحدث لا محالة ويقول له: أنت ستكون في ذلك اليوم حالك كذا، تمامًا مثل شخص يستبعد وجود امتحانات، وأنت تريد أن تضغط عليه، فلا تقنعه بوجود امتحانات، أنت تكلمه عن نتيجة الامتحانات، وماذا سيحدث عندما يرسب، فأنت تخبره وتتجاوز الحديث عن موعد الامتحان، أنت تتكلم عن نتيجة الامتحان، عن ماذا يحدث بعد الامتحان؛ هذا أسلوب الضغط القرآني (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)[الملك:١٤] القرآن يحيط بالنفوس.

أسأل الله عزوجل أن يستعملنا وأن يجعلنا من أهل القرآن، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وجزاكم الله خيرًا.